

الحر من فيج جهنم

تكاثرت الأخبار في الصحاح وغيرها عن رسول الله عليه السلام أنه قال « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيج جهنم » وقال « اشتكت النار إلى ربها فقالت : ياربى أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، أشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما تجدون من الزمهرير »

وقد أشكلت هذه الأحاديث أيضاً . فإن ظاهرها أن الحرارة التي نحسها في الصيف ، والبرودة التي نحسها في الشتاء صادرتان من النار . وهذا يكاد يكون بطلانه من قسم الضرورة . فإن الحرارة والبرودة ناتجتان من موقف الشمس من الأرض لا من جهنم وهذا مما لا يناع فيه أحد من العقلاء .

وقد أجاب فريق من العلماء عن ذلك وقال : إن الكلام فيه تشبيه . والمراد أن شدة الحر مثل فيج جهنم في الحرارة . ويرد هذا القول الرواية الأخيرة ، فهي صريحة بأن الحرارة والبرودة من تنفس النار . ثم كيف يقال : إن حرارة الصيف مثل حرارة النار التي تطلع على الأفتدة ، والتي تشوى الجلود شيئاً ، والتي (وقودها الناس والحجارة) والتي نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً منها كما في الحديث الصحيح ؟ ! وصح عن رسول الله عليه السلام أنه قال « أهون أهل

النار عذاباً من له نعلان من نار يغلي منهما دماغه » . فكيف يقال : إن الحر مثل نار هذه أقل أوصافها ؟ أليس هذا مثل أن يقال : إن قرصة النملة مثل عضّة الأسد ، أو مثل ضربة السيف وطعنة الرمح ؟ لا ريب أن حمل الحديث على هذا باطل شرعاً وعقلاً ولغة .

وأجابت طائفة أخرى قالت : إن الأحاديث على ظاهرها ، وإن الحرارة التي يجدها الناس في القيظ هي خارجة من جهنم . ولم يبالوا مخالفة المشهود . وعندى أن تكذيب الحديث أفضل من هذا القول .

والجواب الصحيح في الحديث ، الذي لا يعدل عنه أن الحرارة من الشمس ، وأن الشمس من النار . أي إن الشمس جذوة من جذواتها ، وشرارة منقذحة منها . فالحرارة الآتية منها هي آتية من النار . وليس أمامنا مانع من أن تكون الشمس من النار . وقد تكاثرت الأحاديث الصحاح بأن الشمس تدنو يوم القيامة من العباد ، وتصليهم ناراً حامية ، حتى يأخذهم العرق فيلجمهم ، وحتى يستصرخوا بالأنبياء من عذابها النكر وربما كان قوله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) دالا على ذلك . فالشمس معبودة ، فهي ذاهبة مع عابديها إلى النار . وهي نار محرقة فهي من النار . هذا رأى .

وثم رأى ثان في الحديث ، وهو أن يقال : حرارة الصيف من الشمس ، وحرارة الشمس مكنتسبه من النار وآتية لها منها ، فالحرارة آتية أصالة من النار . أو يقال : ما الشمس إلا شرارة من شرر النار ، انقذفت منها ووقفت كما هي الآن لمصالح العباد

هذه أمور ثلاثة في الحديث لا نرى عائقاً من أن تكون تفسيراً له . وبها يزول ما في الخبر من إشكال .

الحُمى من فيج جهنم

ومثل هذا الحديث قوله ﷺ « الحمى من فيج جهنم فأبردوها بالماء » رواه البخارى ومسلم .

الحمى حرارة تتولد في الجسم إذا أصيب فيه أحد مراكز التدبير بسميات الميكروبات ، أو بآلام أخرى شديدة . فانها إذا أصيبت بذلك فسدت حركتها ونظامها ، فتولدت الحرارة المسماة بالحمى . وهذا أمر لا شك فيه . ولكن ظاهر الحديث خلافه . فانه ربما دل أن حرارة الحمى آتية من لهب النار المعدة للكافرين

فقالت طائفة : إن في الكلام تشبيهاً . والمراد أن حرارة الحمى كحرارة جهنم في الإيلام والإيجاع . وفي هذا القول ما في القول الأول على الحديث السابق من الضعف

والرأى الصحيح أن نقول : إن حقيقة الحمى — كما ذكرنا — تتولد في الجسم لإصابة مركز من مراكز التدبير فيه . غير أن الحرارة المتولدة بذلك هي من جهنم رأساً . أى إن الله أخرج من النار جزءاً يسيراً ونثره في الأرض يصيب به بعض خلقه إذا ما توفرت أسباب الإصابة وأسبابها القريبة هي ما يذكره أهل الطب . ولكن الحديث تكلم فيه من جهة منشئه ومبتدئه . فلا مانع أن يكون من النار منشئاً ، ولا مانع

أن يكون من غيرها . فاذا ما جاء الخبر الصادق بأن ذلك من النار
لزم القول به .

وأما قوله « فأبردوها بالماء » فهو موافق للطب العصري ، حتى
إن الأطباء العصريين يضعون ألواح الثلج على أجسام بعض المحمومين .
غير أنه لا يجوز استعمال ذلك وتعاطيه بدون إرشاد الطبيب واستشارته .
فقد يكون فيه ضرر لبعض المحمومين . والدواء كله إذا استعمل بوصف
الجاهل عاد ضرراً ، وإن كان في أصله نافعاً مفيداً . بل الغذاء إذا لم يؤخذ
بالحكمة والتقدير كان قاتلاً أو ضاراً . فكل شيء يحتاج إلى رئيس
ومختص يضعه بحكمة وتقدير . فالحديث يدل أن الماء البارد مما تعالج به
الحميات ولكن بعد أن يعرف الميزان والمقدار فيه النافع ، وبعد أن
يقدره العارفون به ، والعارفون بالطب . وهذا كما يقال : القرآن هدى
ورشاد . وإذا قرأه غير العاقل وغير الفاهم له قد يكون ضللاً له وفتنة .
وأمثال ذلك . فهذا الحديث من معجزات محمد ﷺ الطبية العالمية التي
لا يمكن معرفتها إلا بوحى أو تعلم ، وهو لم يتعلم ، فلا جرم أن
تكون وحياً .

الطاهر يأكل في سبعة أمعاء

عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « المؤمن يأكل في
معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء » رواه البخارى ومسلم
وروى مسلم عن أبي هريرة أن ضيفاً ضاف رسول الله وهو كافر فأمر

له بشاة فخلبت فشرب حلاها ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، حتى شرب حلاب سبع شياه . ثم انه أصبح فأسلم فأمر له بشاة فشرب حلاها ، ثم بأخرى فلم يستتمها . فقال رسول الله : « المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء »

بيان الحديث أن المؤمن حقاً ، الصادق في إيمانه ، كثير التفكير في الآخرة ، وفي عذابها ، كثير الخوف من الله ، ومن عصيانه وعقابه ، كثير الخضوع والعبادة ، كثير السهر والتهجد والصلاة والصيام ، كثير الجهاد في سبيله وسبيل دينه ، كثير الورع والابتعاد عن الحرام وعن مظانه ، وعن الشبهات ومواقعها ، كثير العناية بدينه وفهمه ، كثير البحث والتنقيب عما يرضى الله ويقرب منه ، وعما يغضبه ويباعد عنه ، كثير الاحتياط لعقيدته وإيمانه خوف أن يصيبه شيء من غبار البدع والشبهات ، كثير الرغبة في الجنة والزهادة في الدنيا ولذاتها ، كثير هذه الأمور كلها : يقل نصيبه من الدنيا من مأكل ومشرب ، وملبس ومسكن ، وجمع مال فهو يأكل في معي واحد فقط . وهذا كناية عن أنه قليل حظه من الدنيا ولذاتها بتعلقه بالأمور المذكورة اللازمة للإيمان الصحيح . ولا يريد الحديث أن خلقته مخالفة خلقه الكافرين ، ولا أن تركيب بدنه خلاف تركيب بدن غيره .

وأما الكافر الذي لا يبالي بالدين ، ولا بما يغضب الله أو ما يرضيه ، فهو عكس المؤمن في ذلك . فليس له شيء يهمه سوى الدنيا ، والاستكثار منها ، والجمع لها ، والتفنن في تناول لذاتها ، واختراع

المأكولات والمشروبات . فلا يبالي أن يأكل حراماً ، وأن يجمع حراماً ، ولا يبالي بالفقراء والمحتاجين ، الذين يتضاغون حوله جوعاً وعرياً ، لا يعرف لله ساعة يهب نفسه له فيها بعبادة ومناجاة ، أو تفكر في آلائه وشؤونه . وبالأجمال كل شيء فيه موقوف على الدنيا وعلى خدمتها . فهو كثير الحظ منها ، كثيرة الحظ منه • فهو يأكل منها بسبعة أمعاء • أي أنه كثير الحظ منها ، لا أن خالقه مغايرة خلقة المؤمن . والسبعة الأمعاء هنا لا يراد بها حقيقتها • وهذا العدد يراد به التكثير لا التحديد ، مثل السبعين • كما تقول : لا يقبل الله من كافر عمله ولو عبده سبعين عاماً ، ولا من مبتدع بدعته ولو تقرب إليه بها سبعين عاماً . وكذا تقول : سبع سنين . قال الله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر عيده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وقال : (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) . لا يريد الله بذلك حقيقة السبعين ، ولا حقيقة السبعة ، وإنما يريد مطلق الكثرة .

وكذا الأكل هنا لا يراد به الأكل المعروف وهو ازدراد الطعام ، وإنما يراد معنى أعم ، وهو التمتع بها بالأكل ، أو اللبس ، أو الجمع والادخار • وهو كقول الله (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وقوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم) وقوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا)

فهذه الآيات لا تعنى الأكل المعروف ، وإنما تعنى شيئاً أعم من ذلك هو ما تقدم . وبهذا يسلم الحديث من الاشكال المشهور الذى أورد عليه والذين جعلوا الحديث مشكلاً هم الذين حسبوا أن الأكل هنا هو الأكل المعروف وأن الكافر يأكل كما يأكل المؤمن سبع مرات . فعملوا أن هذا المعنى ليس صحيحاً ، وهو خلاف المشهود . فأجابوا عن الإشكال أجوبة ليس فيها مقنع . منها أن طائفة قالت : إن الحديث مراد به كافر معين ومؤمن معين .

ولعلك تقول : هذا الذى تذهب إليه فى الحديث حسن لولا أن الرواية الأخيرة تعانده فيما يبدو فإن ظاهرها أن الأكل مراد به الأكل بدليل هذا الذى شرب سبع حلبات - وهو كافر - فلما أسلم شرب حلباً واحداً . فهذا كالتصريح أن الكافر يأكل كما يأكل المؤمن سبع مرات . فالأكل هنا هو الأكل ، والسبع هنا هى السبع .

فأقول لك : إن الأكل هنا جنس يتناول أنواعاً . يتناول الأكل حقيقة ، ويتناول اللبس ، والسكن ، والادخار ، والجمع ، وكل ما فيه تمتع . ودليل ذلك الآيات المتقدمة . وإذا كان ذلك كذلك فأحد أنواع الأكل الأكل المعروف ، كما فعل الرجل المذكور فى كفره وإيمانه ، والأنواع الأخرى التى يتناولها لفظ الأكل دل عليها قوله « والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »

وسبب الحديث لا يكون مخصصاً عمومياً . فالعموم باق على حاله ، وإن كان السبب خاصاً لا عموم له . ويبان هذا أن الرسول عليه السلام

لما رأى ذلك الكافر وكثرة ما يأكل ذكر خلقاً من أخلاق الكافرين ، وهو التمتع باللذات المادية بشره وشدة . والمعاني تتداعى . وتفسير هذا قول العلماء « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » يريدون أن اللفظ يكون عاماً في دلالاته وإن كان خاصاً سببه . وغالب عمومات الشرع أسبابها خاصة . هذا من جهة الاكل . وأما من جهة العدد فلا ريب أنه لا يريد في مثل هذا الاستعمال تحديد العدد . ومثل ذلك أن تقول : فلان يتكلم بسبعة ألسنة ، أو سبعة أفواه ، ويأكل في سبعة بطون ، أو سبع أيدي ، وينظر بعيون كثيرة ، ويمشي بأرجل عديدة ، وأمثال ذلك . لا شك أن القائل لذلك لا يقصد العدد المذكور ، وإنما يريد المبالغة . ومن فهم من هذه الأقوال العدد فهو كمن فهم من قوله تعالى (تجرى بأعيننا) وقوله (والسماء بنيناها بأيدينا) (وإنا لموسعون) وقوله (وخلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) العدد . وكان كذلك الوزير الذي قال له الحجاج : اقطع لسان هذا . يشير إلى شاعر مدحه ونال إعجابه . فأخذ الوزير موسى وآلة القطع وأحضر الشاعر ليقطع لسانه وكان الحجاج يريد أن يعطيه مالا يكف لسانه عن ذمه .

وبما ذكرنا صار الحديث واضحاً ، وقاعدة من قواعد الأخلاق الإسلامية . وهى أن المؤمن العاقل الحكيم لابد أن يكون مستقلاً من الشهوات المادية ، مستقلاً من خدمة الدنيا لذاتها ، ليس بذلك الطماع الجشع ولا اللعز الشحيح ، ليس بعزير عليه أن يضيع ماله في وجوه البر والخير ، بل له شأن أسمى من ذلك ، وغرض أعلى ، وهو

تنمية الروح وتركية العقل . ولا أهدم لأخلاق الأمم ، وللمدنية الفاضلة
من الحرص على الماديات والشهوات .

اماديت تأثير العين

روى البخاري ومسلم عن رسول الله عليه السلام أنه قال « العين حق » وزاد مسلم « ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين » . وثبت في البخاري وغيره عنه عليه السلام أنه كان يعوذ الحسن والحسين بهؤلاء الكلمات « أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » ويقول « كان ابراهيم يعوذ بهن ابنيه اسماعيل واسحاق » . والأخبار في هذا الباب تكاد تكون متواترة .

وقد اتفقت الأمم بالاجمال على أن للعين تأثيراً . فلا تجد أمة إلا وفيها من يعرف بذلك ، ومن يصدقه ويعترف به ، ويروي فيه الروايات الكثيرة العجيبة التي يستحيل أن تكون كلها كذباً ، وأن يكونوا تواطؤوا على الجهل والغلط والكذب فيها . بل يكاد يكون في كل بلدة من يعرف عنه ذلك الداء الويل ، والناس يحكون عنه الأشياء الكثيرة ، ويذكرون أنهم شاهدوها ، أو حدثهم من شاهدوها

وسمعنا من أناس كثيرين أنهم يعرفون أناساً لا تخطئ لهم عين حتى إنهم يقصدون لذلك . فاذا ما أراد إنسان الواقعة بأخر أجر من يعرف بهذا للقيام بهذه المهمة ، فيقوم بها خير قيام ، ويقضي على تلك الفريسة بكلمة أو نظرة . وحدثني إنسان أنه كان في قريته شخص

عرف بالحسد حتى إنه إذا مر فريق من الطير في السماء قال لهم : أى هذه الطيور تريدون ؟ فيشيرون إلى واحد . فيقول فيه كلمة ، أو ينظر إليه نظرة ، فيخر ذلك الطير صريعاً . وكذلك يصنع بالبهائم والروايات فى ذلك كثيرة . وكلنا يسمع من ذلك الشيء العجيب وإن كنا نرتاب فى صحة كثير منه .

ونحن لا نقول : إن جميع ما يروى فيه صحيح . وإنما نقول : إنه مستحيل أن يكون كله غير صحيح . ولا شك أن أغلب أهل الأرض يؤمنون بذلك . والذين ينكرونه هم طائفة قليلة من المتعلمين السطحيين ولا أظن أن جمهور النوع الإنسانى يتفق على الخطأ القرون الطويلة ولئن جاز أن يتفقوا على الخطأ فى أمر عقلى نظري فلاس بجائز أن يتفقوا على الخطأ فى أمر يرجع دليله إلى المشاهدة والحاسة . وأمر العين راجع إلى المشاهدة والحاسة . ولئن جاز هذا الذى لا يجوز فلن يجوز أن تجتمع الأديان كلها على الخطأ . وقد اجتمعت كلها على أمر العين ، والاصابة بها . والدين الاسلامي يقرر ذلك أصدق التقرير . وفى القرآن الكريم ما يومئ إليه . قال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) السورتين . فقد أنزل الله فيه قرآناً ، وأمر رسوله بالتعوذ منه . وفى سورة يوسف حكاية عن يعقوب (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الآية . يقول طوائف من المفسرين : إنه خاف على بنيه العين إذا دخلوا مجتمعين ، فأمرهم أن يدخلوا مصر متفرقين لئلا تصادفهم عين حاسدة

وأما الطائفة المولعة بالإنكار والجحود فقد كذبت أمر المين ،
وأنكرت الحسد ، وعدت المصدق به من العوام ، ولم تعباً بأن تصادم
ديناً ، أو تصادم روايات كثيرة صحيحة ، واتفاق جماهير لا يحصون . لم
تبال بشيء من ذلك . وليس معها من دليل على تكذيبهم ، وإنكارهم
الإنكار البات غير الاستبعاد القائم على الجهل المحض .

فاذا ما قيل لهم : من أين علمتم إنكار ما أنكرتم ؟ وما برهانكم
على أن الديانات مخطئة ، والأئم غاطلة ، والروايات كاذبة ؟ لم يكن لهم
من جواب غير أن يقولوا : لا يمكن أن يصيب الشخص الآخر بغير
اتصال وملامسة ، ولا يمكن أن يؤثر بالحسنى المادى إلا حسنى مادى
مثله نراه ونبصره بأعيننا . فاذا ما قيل لهم : ما المانع من أن يؤثر المعنوي
بالحسنى ؟ وأن تؤثر الروح بالجسم وبالروح أيضاً من غير ملامسة
ومقاربة ؟ وما المانع أيضاً من أن يؤثر الجسم بالجسم بلا اتصال ؟
أو ما المانع من أن ينبعث من روح العائن أو من عينه أو من جسمه
أمر يصرع المعين وإن لم نبصره ؟ ما المانع من ذلك وإن كنت
لا تراه ؟ ! وليس كل ما لا يرى باطلا . وقد كان الناس قبل أن يخترعوا
« الميكروسكوب » ينكرون « الميكروبات » لأنهم لا يبصرونها
ولا يحسونها . ولو ذكرت لهم لكذبوا بها ، ولما آمنوا بها . أو ليس
من « الميكروبات » ما دق على « الميكروسكوب » وما هو فوق
« الميكروسكوب » ؟ ! أي إن من السمات التي تعرف « بالميكروبات »
التي بها تحدث الأمراض ما لم يشاهد إلى الآن ، وما لم يحس مع العلم

أنه يحدث الأضرار ويقتل الأحياء؟ ! لو قيل ذلك لطائفة الجحود والانكار لم يكن لها من جواب فيه مقتنع .

فيا هؤلاء المنكرون ! ماذا تنكرون من ذلك ؟ ! أو لسنا نرى الحي يموت بمجرد أن تفارقه الروح ، ويحيى بوجودها فيه ؟ ! وهل رأينا الروح أو أحسسناها ؟ ! أو لسنا نرى الحي يهدم ، أو يموت موتاً أصغر إذا جاءه ذلك الشيء المجهول المعلوم الذي نسميه نوماً أو موتاً ، ويصحو ويقوم إذا ما فارقه ونحن لانحس ذلك ولا نبصره ؟ ! أو ليس الساحر يؤذى المسحور من غير اتصال ولا تلاق ؟ ! أو ليس الهم يذيب الجسم ، والفرح ينعشه ويلوّه رونقاً وبهاء . والفرح والهم غير محسوسين ولا مبصرين ؟ ! أو ليست الذكري تلعب بالذاكر لعب النكباء بالرمح الخطل ، والذكرى غير محسوسة ولا مبصرة ؟ ! أو ليس العقل يرفع صاحبه أو يخفضه ، والعقل غير محسوس ولا مبصر ؟ ! فإذا تنكرون بعد هذا ياهؤلاء ؟ ! إن من الأفاعي لنوعاً يخطف الأبصار ويسقط الأجنة من بطون أمهاتها عند المشاهدة والرؤية وهذا النوع هو الذي قال فيه رسول الله عليه السلام « اقتلوا الأبر وذا الطفيتين من الحيات ، فانهما يسقطان الحبل ويلتزمان البصر » ؟ ! وإن لم يقنعكم هذا قلنا لكم : إن من الأشجار لشجرة تنفعل بالرؤية والمقابلة ، فتتكش إذا نظر إليها ناظر ، وتذبل وتتضاءل . وقد ذكرت ذلك المجلات المصرية نقلاً عن الغريبة . وصورت هذه الشجرة متضائلة .

تجميع العلوم العصرية لهذه الأدلة

فان لم يقنعهم ماقدمناه قلنا لهم : أنظروا إلى التنويم المغناطيسى أنظروا كيف ينوم الشخص الآخر ، ويفقده حواسه ، ويتصرف فيه كما يرى ، بمجرد أن يقف أمامه ، وأن ينظر إليه ويفكر فيه . بذلك يقضى على شعوره ووجدانه ، حتى لا يحس ضرباً ولا ألماً . وليس في هذا التنويم شيء من الاتصال والملامسة ، وإنما هو تسليط روح على روح . أليس هذا هو مثل الحسد الذى ينكروونه ويحسدونه أثبتته العلم إثباتاً لا يتحمل النقص ؟

إن التنويم المغناطيسى ، وتصرف المنوم فى المنوم هو من عمل الروح وتصرفها . وكذلك الحسد الذى يأبون الايمان به .

والروح لها شأن عجيب غامض . والزمان يفسرها شيئاً فشيئاً والناس كلهم يلزمهم أن يؤمنوا بتأثير العين ، وتأثير غير المباشر ، وتأثير الروحى المعنوى فى الحسى المادى . فانهم جميعاً يقولون : إن لهذا العالم المتقلب ، المضطرب ، الحى ، الميت ، المتحرك ، الساكن ، قاهراً وسطاً غائباً عن الأبصار والحواس يدبره كما نراه بلا اتصال ولا مباشرة وليس تدبيره إياه موقوفاً على أن يتصل به ، وأن يباشره . إذاً ما لهم أنكروا ذلك فى الأرواح وهم به مؤمنون ضمناً . هم بين أمرين : إما أن ينكروا رب العالم ومصرفه . أو ينكروا قولهم الذى أنكروا به تأثير العين .

ما يروى عن إبراهيم من الكذب

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . ثنتين منهن في ذات الله . قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) » قال « ويدنا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها . فقال : من هذه ؟ قال : أختي . فأتى سارة فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك . وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي . فلا تكذبيني . فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده . فأخذ . فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد . فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . فدعا بعض حجبه فقال : إنك لم تأتني بانسان إنما أتيتني بشيطان . فأخدمها هاجر . فأنته وهو يصلي . فأومأ بيده : مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الكافر في نحري ، وأخدم هاجر » رواه البخاري . ورواه مسلم بسياق آخر يخالف لهذا السياق بعض المخالفة . والحديث صحيح الإسناد لا مغمز فيه . موافق لما في القرآن الكريم . مفسر لما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فيه وقد كذب الحديث جماعة ، واعتلوا بعلل ضعيفة :

قالوا أولا — هذا خلاف قول الله تعالى في إبراهيم من سورة

مريم (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) قالوا :
والصديق هو الذي لا يكذب .

وقالوا ثانياً - لا بد أن يكون الرسول معصوماً من الكذب .
ولو جاز عليه الكذب لما وثق بشيء من قوله . وهذا خلاف الاجماع ،
وخلاف الدين

قالوا ثالثاً - إن الأمور المذكورة عنه عليه السلام ليست من
مادة الكذب ، ولا مما يصدق عليه تعريفه . إن هي إلا معاريض . وفي
المعاريض مندوحة عن الكذب . فالحديث الذي يقول إنها كذب
لا يكون صحيحاً لمخالفته اللغة والواقع .

وقالوا رابعاً - إذا كان مثل ذلك يسمى معاريض ، ويسمى
كذباً ، فلماذا اختار رسول الله في حق خليل الله أبشع اللفظين ؟ !
ولماذا لم يقل أحسنهما ؟ ! ولماذا لم يسمه معاريض ؟ !

هذه هي شبهتهم التي كذبوا الحديث لأجلها .

ونحن نقول في جواب هذه الشبهات :

أما الأولى ، وهي أنه كان صديقاً نبياً . فلا ريب أن مغزى الآية
هو الثناء على إبراهيم بفضيلة الصدق . بيد أن الصدق صدقان : صدق
ممدوح ، وصدق مذموم . كما أن الكذب كذبان : كذب ممدوح وآخر
مذموم . وقد يجب الكذب أحياناً ، كما يحرم الصدق أحياناً . وقد
يندم الصادق تارة ، كما يحمد الكاذب أخرى . فالمدح من الكذب
هو ما كان فيه مصلحة دينية ، أو دفع مظلمة ، أو فساد . والمذموم من

الصدق هو ما جلب أحد هذه المفسدات أو كلها . فلو سألت ظالم عن إنسان يريد أن يقتله ظاماً ، وكان يترتب على أن تصدقه قتله ، لوجب عليك أن تكذبه ، ولحرم عليك صدقه . ولو كان في منزل أحدنا أحد أنبياء الله ، فجاء من يريد إيذاؤه ، أو قتله لوجب علينا ألا نخبر بوجوده ، ولكان الكذب هنا هو الفضيلة ، والصدق هو الجريمة

ولو سألت عدو للمسلمين عن موطن ضعفهم ، وعن مقتلهم ، لما جاز لك أن تخبره الخبر على وجهه وللزم التضليل لذلك العدو . ولو كان يترتب على كذب المصريين جميعاً أن يخرج الانجليز من مصر ، وأن يستقلوا في بلادهم ، لكان كذب المصريين كافة من الواجبات المقدسة الدينية الوطنية . ولو رأيت من يريد الفجور بامرأة ، وكنت قادراً على دفع الفجور بالكذب ، لزم أن تكذب . وبالأجمال فكل

كذب يجب مصالح عامة للدين ، أو للوطن ، فهو من الفضائل وكل صدق يجب فساداً أو عدواناً للدين أو الوطن فهو من رذائل . وسر ذلك أن الكذب ليس مذموماً لأنه مؤلف من « ك . ذ . ب » وأن الصدق ليس ممدوحاً لأنه مركب من

« ص . د . ق » بل مدحهما وذمهما لما يشترانه من فساد وصلاح وقد كان رسول الله عليه السلام يورى في حروبه ، ويقول « الحرب خدعة » وكان يجوز لأصحابه أن يكذبوا ، وأن يقولوا فيه وفي دينه ما تدعو إليه الحاجة إذا أراد المسكنة من أعداء الاسلام ، وصناديد الضلال الذين وقفوا في طريق دعوته ، وخانوا عهوده ، ونقضوا

مواثيقه ، وأسرفوا في التآليب عليه وعلى دينه . كما أباح لمحمد بن مسامة أن يقول ما شاء في قتله كعب بن الأشرف اليهودي الذي آذى الله ورسوله ، وأخذ يدعو العرب وغيرهم لحرب الاسلام وحرب المسلمين بما أوتي من جاه ومال . وقد كان رسول الله عليه السلام راكباً مع أبي بكر رضي الله عنه في سفر الهجرة ، فكان الناس يعرفون أبا بكر يجهلون رسول الله . فكانوا يسألون أبا بكر من هذا الذي معك ؟ فيقول « هذا هاد يهديني السبيل » ، فيفهمون أنه يريد الطريق . وهو يريد السبيل إلى الله . وقد صح في مسلم عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمى خيراً » وفيه أيضاً عنه أنه لم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : في الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها

وإذا كان الصدق منه الممدوح والمذموم لم يمكن أن يمدح ابراهيم عليه السلام بالصدق المذموم البتة . والآية تريد مدحه ولا ريب . فلا تعارض بين هذا الحديث وبين هذه الآية كما ترى . وهذه الكذبات المذكورة هي من الكذب الممدوح المباح الذي قد دفع عدوان المعتدي ، وفيه حفظ عرض من أشرف الأعراس وخذلان كافر من أظلم الظالمين . ولهذا يقول : إنها في ذات الله . فالآية في شط ، والحديث في آخر .

ثم إننا إذا أردنا أن نفهم قوله (صديقاً) من حيث ما يدل الوضع

العربي لم يدل على ما قالوه . فان « الصديق » هو كثير الصدق مبالغة في « صادق » وليس معناه المعصوم الذي لا يكذب

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » فهل معناه أنه يكون معصوماً من الكذب ، أو من الصدق . وأمثال ذلك في لسان العرب . فمثلاً « الطييع » هو كثير الطاعة مبالغة في « طائع » وليس معناه « الذي لا يعصى أبداً » . وكذا « الكذاب » هو كثير الكذب وليس هو الذي لا يصدق . هذا عن الشبهة الأولى

وأما الشبهة الثانية ، وهي أنه لو كذب لما وثق بشيء من قوله فيقال نحن : لا نجوز عليه الكذب المذموم الممنوع ، ولا الكذب في الوحي والتبليغ فيلزم ما قالوا . وإنما نجوز من ذلك مثل ما في هذا الحديث وهو الكذب الذي فيه دفاع عن الفضائل والآداب والأعراض والدماء من غير أن يكون منه شيء في التبليغ فليس يلزم ما ذكره .

وهذا كما نعلم أنه جائز لكل مسلم أن يكذب إذا كان في كذبه مصلحة عامة راجحة على صدقه ، أو كان فيه دفع عدوان عن عرض أو دين أو فضيلة كما أسلفنا . وهذا لا يسلب جميع المسامحة العادلة وصفة الأمانة .

وأيضاً قد قامت البراهين على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون

فى التبلىغ والوحى ، ولا يطعن فى عصمتهم ما ذكرنا . وكل شىء يجب أن يكون موجوداً إذا وجد برهانه . وبرهان عصمة الأنبياء موجود مطلقاً فىجب أن تكون لهم العصمة مطلقاً . وهذا قول لا ىرد ، إلا أن يزعم المخالف أنه لىس له برهان على عصمتهم إلا إذا كذب هذا الحديث وما فى معناه . وهو غير ممكن أن يقوله .

وأيضاً هذه الشبهة لاحقة النسيان والخطأ فى الاجتهاد . وقد ذكرنا أن الأنبياء قد ينسون ، وقد يخطئون فيما اجتهدوا فيه . لكن لا يقرون على الخطأ - لا فيما قالوه وحيًا عن الله . فما كان جواباً عن النسيان والاجتهاد كان جواباً عن هذا الحديث سواء . هذا عن الشبهة الثانية

وأما الشبهة الثالثة ، وهى أن الأشياء المذكورة عن إبراهيم معارضى وليست من الكذب . فىقال : هذا أمر راجع إلى اللغة ، لا إلى النظر والعقل . ولا ريب أن المعارضى تسمى كذباً . فان المتكلم المخبر يعنى بكلامه معنى فى نفسه ، ويريد أن يفهم من يخبره معنى . فان كان الواقع مخالفاً لما يعنى مخالفاً لما يريد أن يفهمه المخبر السامع ، فهذا هو الكذب المحض البرىء من الصدق ، وإن كان مخالفاً لما يريد أن يفهم السامع فقط فهو كذب من جهة التفهيم ، صدق من جهة ما يعنيه . فهو كذب من جهة ، صدق من أخرى وهذا هو ما يسمى بالمعارضى فى اللغة .

ولارىب أنه لو سألك سائل عن إنسان معك فقال لك : من هذا ؟ فقلت : هذا أخى . وأنت تريد أن تفهمه أنه أخوك من النسب ، وفهم

أنه كذلك ، وهو في الواقع بعيد النسب عنك ، وإنما أردت أخوة الاسلام ، لكنت كاذبا ، ولشمل قولك هذا تعريف الكذب . ولو كان عليك لأحد دين ، فطالبك ، فقلت : ليس عليّ له شيء ، وأقسمت على ذلك ، لكنت كاذبا آثما وإن كنت تعنى معنى آخر في نفسك صدقا . وكذا أمثال ذلك في الكلام . وأقوال ابراهيم عليه السلام هي من هذا القسم . ومن الاسراف الذي لا يرضاه الله أن نرد الأخبار الثابتة في الاختلاف على موضوع لغوى لم يتثبت منه .

وأيضاً الذي يبدو من القرآن أن هذه الأقوال منه عليه السلام كذب محض في ذات الله ، وفي دين الله ، لاذلال الكفر والضلال ، وليست من المعارض ، ولا سيما قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) والتأويل التي يحملونها هذه الآية لا تصح . وذلك كما كان بعضهم يقف في القراءة على قوله (بل فعله) ويستدعي بقوله (كبيرهم هذا) ولا يريد أن يكون (كبيرهم) هو الفاعل . ويجعل (كبيرهم هذا) مبتدأ وخبراً . وهذا ضرب من الالغاز والتعمية ، لا يوجد في كلام من يريد أن يفهم مراده . وكما يقول فريق : إن قوله (بل فعله) مشروط بقوله (إن كانوا ينطقون) أى فهم لا ينطقون ، فهو لم يفعله . وهذان القولان مبنيان على أن ابراهيم كان عربى اللسان . وما كان كذلك . ومراد ابراهيم عليه السلام بقوله هذا أن يوبخهم ، وأن يفند آراءهم ، وأن ينههم إلى غلطهم وضلالهم بأسلوب لا يضطرونهم إلى الانحغال منه . لأنه إذا قال : إن الذى كسر الأصنام هو الصنم

الكبير عرفوا أنه لا يمكن الصنم أن يكسر شيئاً ، ولا أن يفعل شيئاً وعرفوا أنهم على ضلال في عبادتهم هذه الأصنام حاسبين أنها تقضى لهم شيئاً ، وتدفع عنهم شيئاً ، وعرفوا أن الدعوى بأن كبيرهم هو الذي كسرها لا تقبل ، وعرفوا أن زعمهم فيها ما يزعمون كذلك لا يقبل . فنتج المطلوب الذي كان يقصده عليه السلام ، وهو أن يعرفوا في أنفسهم أنهم في ضلال مبين ، وأن أصنامهم ليس لها أن تفعل ، ولا أن تعبد ، ولا أن ترجى . وهذا من محكم الرد على المخالف وحكيمه . ولقد أخذ هذا الرد مجراه ، وبلغ من أنفسهم ما أراده عليه السلام فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا (انكم انتم الظالمون) ولكن العناد سجنهم بعد إلى ضلالهم وإلى مشاكسة الحق بعد عرفانه . وهذا شأن كثير ممن أضله الله قديماً وحديثاً (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)

وقد جاء في صحيح مسلم في حديث الشفاعة أن أحد كذباته عليه السلام هي قوله للشمس والقمر والكواكب (هذا ربى) من سورة الأنعام . ولم يذكر قصة الجبار . وهذا ظاهر في أنه أراد الكذب الصريح في ذات الله . وما يذكره بعض الناس في الآية من التقدير « أهذا ربى ؟ » على أن هناك استفهاماً حذف فهو ضعيف جداً من جهة اللغة ومن جهة سياق الآية نفسها . وقوم إبراهيم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم ، فأراد عليه السلام أن يستدرجهم ، وأن يبطل ما يذهبون إليه بطريقة خفيفة لطيفة لا يهربون منها ، ولا ينكرونها ، فيدعى لهم أولاً أنه منهم ، وأنه على رأيهم ليأنسوا به وبما يقول ، وليستمعوا إليه

ثم يرجع على عقيدتهم بالابطال تدريجاً شيئاً فشيئاً ، فيبطل أولاً ألوهية الكوكب لما يشاهده هو وهم فيه من أمارات التسخير والتصريف الاضطرارى لمصرف قاهر فوقه . وذلك أنه مسوق ومقود إلى جهة معينة ، في مواعيد معينة ، في سرعة معينة ، لا يعدوها ولا يقدر أن يعدوها . وهذا ظاهر عليه وعلى سائر ما نرى من المخلوقات . والاله لا يكون مسخراً مذلاً مقهوراً . وهذا هو معنى (لا أحب الآفلين) ثم يفعل ذلك في جميع معبوداتهم حتى الشمس التي هي أعظم ما يرى وأجله وأضوؤه بذلك البرهان العجيب وهو ما يشاهد فيها من الضعف والسير البريء من الاختيار الذي لا يمكن أن تخرج عنه . ومن نظر إلى الشمس وإلى سيرها بل إلى الأفلاك كلها علم ضرورة أنها مصرفة ومسوقة بلا اختيار وأنها تسبح في أفلاكها سبوحاً قهرياً ليس لها فيه إرادة . وإلى هذا الإشارة بقوله (لا أحب الآفلين)

ولو أن إبراهيم بدأهم بالانكار والتجهيل . أو لو أنه أنكر آلهتهم مرة واحدة ، وجمعها في كلمة الانكار ، لما كان لقوله أن يبلغ من أنفسهم ما بلغ ، ولما كان له أن يظهر عليهم كما ظهر . ولهذا أعظم القرآن طريقة إبراهيم هذه . وقال في خاتمة الآيات (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) فياليت من يدعون إلى الله وإلى الإصلاح الدينى أو الوطنى يقتبسون شيئاً من طريقة أنبياء الله ، ويسلكون ما يسلكون في دعوتهم . وأما قوله (إني سقيم) من الصفات فنحن نذكر القصة من أولها ليفهم مغزاها

(وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أنفكا ألهة دون الله تريدون فما ظنكم رب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين وأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في البحر فأرادوا به كيداً فجعلناه هم الأسفلين)

والذى يبدو من سياق الآيات أنه كان هو وهم فى مكان واحد لدى أصنامهم ولعل ذلك كان لعبادتهم . وأنه اليوم الذى يخرجون اليها ليرفعوا اليها النذور والتعظيم والعبادة كما يفعله أمثالهم اليوم فى بلادنا هذه فى الأولياء والصالحين ، وإن قوله (فنظر نظرة فى النجوم) هى النظرة المذكورة فى سورة الأنعام التى رأى فيها الكوكب والشمس والقمر ، وأبطل ألوهيتها . ثم إنهم بعد ذلك الموقف وذلك الحجاج أرادوا الرجوع إلى مساكنهم ، والافتراض من حول أصنامهم . وكان إبراهيم قد صمم فى نفسه على أن يحطم أصنامهم ، وأن يصيرها جذاً إذا رجعوا وخلفوه ، فأراد أن يتخلف عنهم ، فقال لهم : إني لا أقدر على القبول لأنى مريض فلا أبرح مكانى هذا . فلما ذهبوا وتركوه راغ إلى أصنامهم فأعمل فيها معول الحق فخطمها تحطياً وصيرها هباءً إلا أكرها ليتها بما فعل . ثم إنهم علموا بما فعل ، فجاءوا إليه مسرعين محنقين ، فطفق يجادلهم ويحاجهم ، فأقبلوا

منه حجة ولا برهاناً ، وما كان لديهم ، وما كانت حججهم إلا أن
أججوا له ناراً وقذفوه فيها ، وهذه هي حجة المبطلين دائماً في السابق
واللاحق ، في الأولين والآخرين . فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ونجاة
مما أرادوا به ، وجعلهم هم الأخسرين . وكذلك العاقبة تكون أبداً للمتقين
والفوز للصابرين .

هذا هو الظاهر من الآيات ومن القصة من غير أن نراجع
تفسيراً أو أن نسمع فيها كلاماً من أحد . فقلوه (إني سقيم) كذب في
ذات الله ، كما قال رسول الله عليه السلام ، وكما ظهر من الآيات . هذا
عن الشبهة الثالثة .

وأما الشبهة الرابعة ، وهي قولهم : لماذا اختار أبشع اللفظين ؟
فيقال : إن قوله « كذب في ذات الله » ليس فيه بشاعة ، وإنما يكون
بشعاً لو قال « كذب » وسكت . أما إذا ذكر أن الكذب كان في
ذات الله ، ولأجل الله ورضوانه فما فيه شيء ، وليس بمحرام . بل قد
يكون جائزاً ، وقد يكون واجباً إذا ما كان الصدق فيه فساد في
الأرض أو خذلان لحق كما قدمنا . وكيف يكون الواجب بشعاً ،
وكيف لا يكون التحديث عنه جائزاً لاشيء فيه .

وأيضاً إن مثل هذه العبارة ضرب من ضروب المدح والثناء ،
ضرب من الاطراء . فاذا قيل : لم يكن من فلان في حياته كلها كذب
— لا في هزل ولا في جد — إلا ثلاث كذبات كان ذلك القول في
أقصى عبارات المدح . وهذا كما يقال « كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه »

لمحصر عيب الانسان لا يكون عيباً . فاذا قيل : لم يعص فلان ربه إلا مرتين في حياته كان هذا القول مديحاً قطعاً . وليس معناه أن الكذب نفسه ممدوح ، ولكن المدح يؤخذ من العبارة كلها .

وأيضاً قد ذكر القرآن في حق الأنبياء عبارات قد تكون مثل نسبة الكذب إلى ابراهيم وقد تكون أشد . فقال في خاتمهم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وقال (واستغفر لذنبك) وقال في آدم (وعصى آدم ربه فغوى) وقال (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك) وهذا في القرآن غالب وحينئذ يقال : هذه الكلمات إما أن تكون على ظاهرها ، وأنه وقع منهم ذنوب ، فلتكن كذبات ابراهيم منها ولتكن من الذنوب الجائزة في حق الأنبياء . وإما ألا تكون على ظاهرها ، وأنهم ليست لهم ذنوب في الحقيقة ، وتلك الآيات مذهب بها عن ظاهرها . فيقال : إذا لماذا اختار هذا التعبير البشع الذي يوهم النقصان ؟ ولماذا لم يأت بالعبارات البعيدة عن ذلك ؟ وهذا السؤال في الآيات كالسؤال في الحديث . فما كان جواباً عن الآيات كان جواباً عن الحديث .

حديث الذي صرف نفسه

عن أبي هريرة عن رسول الله عليه السلام قال : « قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله : إذا مت فخرقوني ، ثم اذروا نصفي في البحر ونصفي في البر ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لا يعذب به أحداً من

العالمين . فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم . فأمر الله البحر بجمع ما فيه وأمر البر بجمع ما فيه ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك ياربى ، وأنت أعلم . فغفر الله له « رواه البخارى ومسلم . وروياه أيضاً من حديث أبى سعيد . ورواه البخارى عن حذيفة .

قد عد هذا الحديث قوم مشكلاً فان ظاهره أن الرجل كان شاكاً فى قدرة الله لأنه قال : لئن قدر الله عليّ . وقد غفر له . ومن شك فى قدرة الله لم يكن مسلماً . ومن لم يكن مسلماً لم يكن أهلاً لأن يغفر له . فالحديث من المشكلات .

فأجابت طائفة قالت : إن « قدر » هنا بمعنى ضيق كقوله تعالى (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) وقوله : (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى) وقوله فى ذى النون (إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات) كل ذلك صائر إلى معنى ضيق .

وهذا القول ضعيف لأن تقدير الكلام عليه « لئن ضيق عليّ » ليعذبنى » وهذا يقرب من اتحاد الجزاء والشرط ، لأن التضيق هاهنا هو التعذيب ، فيرجع تقدير الكلام إلى « لئن عذبنى ليعذبنى » وأيضاً إن التضيق لا يعبر به فى الكلام الفصيح عما فى الآخرة ، وعما بعد الموت . وإنما يستعمل فى الدنيا وضيقها وفقرها وبؤسها . وأما الآخرة ففيها العذاب والآلام والنيران الحامية . فما معنى التضيق فى الآخرة على كل حال سياق الكلام يأتى هذا القول .

وقالت طائفة : كان جائزاً فى الشرائع الأول أن يغفر لمن كفر .

وهذا الرجل الذي شك في قدرة الله كان من بنى اسرائيل . وهذا قول لا يلتفت إليه .

وقالت طائفة : إن الجاهل قد يعذر بجهله ، وإن جاء كفراً ، مادام غير متعمد . وهذا الرجل كان جاهلاً . فهو معذور غير مأخوذ . وهذا القول كالأول لا يعتد به . ولو صح لنجا اليهود والنصارى وطوائف الكفر الذين كفروا بجهالة وما كانوا عالمين .

وقالت طائفة : إنه قال ذلك القول في حالة وجل وخوف وغيبوبة فغلط لسانه ، وتفوه بما لم يرده . وهذا كالرجل الذي قال « اللهم أنت عبادى وأنا ربك » من شدة الفرح والأعمال بالنيات . والله لا يؤاخذ إلا بما قد عقد عليه القلب ، لا بما سها به اللسان . ولا يقرب من الصواب أن يكون مقام هذا الرجل مقام من يغلط لسانه ، ومن يقول ما لا يريد جنانه . ومن البعيد الذى يضاف إلى المستحيل أن يكون ذلك القول غلطاً لسانياً لم يقصده القلب .

الجواب الصحيح :

والجواب الصحيح أن الكلام فيه شئ من المجاز ، وأنه قد وضع اللازم فيه موضع المألوم ، أو وضع السبب موضع المسبب ، وأن تقديره « لأن جمعى ليعذبني عذاباً » فوضع القدرة موضع الفعل ، لأن الفعل تلازمه القدرة ، ولا يمكن أن يكون فعل بلا قدرة . فإذا كان فعل علمنا أن هناك قدرة . وإذا علمنا أن هناك قدرة علمنا أنه يجوز أن

يكون فعل ، وإذا امتنعت القدرة امتنع الفعل ، وإذا امتنع الفعل فليس بلازم أن تمتنع القدرة . ومثل هذا التوسع في الكلام مألوف معروف عند العرب ، شائع في مخاطباتهم ، بل هو موجود في كلام الناس اليوم . فهم يقولون : هل تقدر أن تذهب معي ؟ وهل تقدر أن تذهب إلى مكان كذا ؟ وأن تفعل كذا ؟ وهل تقدر أن تقول لفلان وأن تكلم فلاناً ؟ ويقولون : إنك لا تقدر أن تقول لى مقالة كذا ، ولا تقدر أن تكتب فى موضوع كذا . وأمثال هذا الكلام الشائع . يقولون ذلك لمن يستطيع أن يفعل وأن يعمل ، وهم يريدون بالقدرة هنا الفعل ، وإنما عبروا بها عنه لأنها لازمة له وسابقة ولا يكون إلا بها . فكذلك معنى قوله « لئن قدر على ليعذبني » أى لئن جعنى وحاسبنى ليعذبنى وقد جاء فى القرآن آية مثل هذا الحديث تماماً قال الله فى آخر سورة المائدة (إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) وما كان الحواريون شاكين فى أن الله يستطيع أن يفعل ذلك ، وإنما أرادوا (بـيستطيع) يفعل ، ولا خلاف وقد حسب هذا الرجل أنه إذا فرق نفسه ذرات فى القفار والبحار كان أهون على الله من أن يجمعه وأن يحاسبه ، وكان أقل فى نظر نفسه من أن يعبأ الله بجمع تلك الأجزاء الحظيرة الضائعة المبعثرة . هذا ما كان حسب ، وما كان قدر فى عقله . ولا يمكن أن يكون شاكاً فى قدرة الله . والحديث يدل على أنه مؤمن به خائف منه ومن عقابه ، مؤمن بعذابه وحسابه . حتى إن القصة يتبادر منها أنه كان ملياً بسيطاً ليس

بالفيلسوف الباحث . ومثل هذا لا يكاد يصح أن يكون منكرًا لقدرة الله . هذا تحقيق كلمة القدرة هنا

سُبره: أخرى

فإن قلت : ما قلت في كلمة القدرة لا بأس به إلا أن في الحديث إشكالا آخر . وذلك أن صنعه هذا يدل على أنه كان شاكا في بعثه وبعث من تفرقت أجزاؤه ، ولو لم يكن كذلك لما حرق نفسه وذراها . وقوله « لئن قدر عليَّ » التي فسرتها بالفعل يدل على شكه أيضا وإذا كان شاكا في البعث فكيف غفر الله له والشك في البعث كفران ؟ وهل الكافر يغفر له ؟

قلت : أغلب الناس لا يعرف دليل البعث إلا من الشرع ، ولا يعرفه من العقل . فالبعث عندهذا الصنف من الأمور السمعية العقلية لا الأمور العقلية . فلا تقوم الحجة عليه إلا بأن يطالع على السمعى القائل بذلك . أما إذا جهل السمعى ، وأنكره بناء على جهله ، فلا تقوم عليه حجة . وهذا الرجل ما كان عالما بدلائل البعث الشرعية ، ولم يعرفه بعقله ، فشك فيه جاهلا ، فكان معذورا . ومثل هذا من شك في بعض أحوال الآخرة ، وأحوال يوم القيامة ، وصفات الجنة والنار ، لأنه لم يعرف دليلها الثقلي . فمن شك في عدد أبواب النار أعاذنا الله منها لأنه لم يعلم الآية التي ذكرت عددها ، أو شك في الصراط وفي صفته لم يكفر . ولا خلاف في ذلك

سبعة ثمانية في الحديث

وهي أنه يقول : إن الرجل لم يعمل خيراً قط . والتوحيد والايان
بالله وبالرسل والملائكة والكتب من أعمال الخير ، فظاهر الحديث
أنه لم يؤمن بهؤلاء . كما أن ظاهره أيضاً أنه لم يأت بأركان الاسلام :
الصلاة والصيام والزكاة والحج . فكيف يغفر له حينئذ ؟ !
عن هذا جوابان :

الأول — أن يكون المراد أنه قد جاء بحسنات وسيئات ،
فساوت الحسنات السيئات ، فذهبت بها ، ولم تبق منها حسنة ، وصار
كمن لم يعمل خيراً قط ، فقال إنه لم يعمل خيراً . ونظير ذلك : رجل
يكسب كل يوم مائة قرش ، وينفق في جانب آخر كل يوم مثلها ،
فاذا ما استمر كذلك سنة وأردنا أن ننظر فيما كسب في هذه المدة ، فانا
نقول بعد الحساب : إن هذا الرجل لم يكسب شيئاً قط . وإذا فرضنا
أن مواليد الأمة المصرية مائة ألف وموتاهها كذلك في سنة ١٩٣٥ فانه
يصح لنا أن نقول : إن الأمة المصرية في السنة المذكورة لم يأتها عدد
جديد ، أو لم يولد لها ، وأمثال هذه العبارات . وربما فسر هذا ما صح
عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه « أتدرون من المفلس » قالوا :
المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار . فقال : « المفلس من
يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وسفك دم
هذا ، وأكل مال هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته

فإن فنيته حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحه عليه وطرح في النار » رواه مسلم . والفلس هو الذي لا شيء له . فصار هذا العامل الذي استحق أن تضيع أعماله كأنه لا عمل له وكأنه لم يعمل خيراً قط . وبهذا الجواب تنحل شبهات كثيرة عن أحاديث معروفة . فليكن من القاريء على ذكر .

والجواب الثاني — إن العمل إذا أطلق إطلاقاً ، كما إذا قيل عمل فلان عملاً صالحاً ، أو عملاً سيئاً ، لا يذهب عند هذا الإطلاق إلا لأعمال الجوارح من صلاة وصيام وحج ونظائره ولا يذهب لأعمال القلب من الإيمان والتصديق والرحمة وحب العدل والحق وأمثاله . لهذا كثيراً ما يقرن القرآن العمل الصالح بالإيمان مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآيات . إذاً مراده هنا أنه لم يعمل عملاً مما تقوم به الجوارح لا أنه لم يؤمن .

فاذا قلت : وهل تارك الأعمال كالصلاة والصيام يغفر له ؟ !
أوليس تارك ذلك كافراً كما صح عن رسول الله عليه السلام بالأسانيد الصحيحة ؟ !

قلت أولاً : لعل هذا الرجل ما كان آمن إلا في آخر حياته . فلم يمكنه أن يؤدي عملاً من الأعمال . وذلك ككافر أسلم بعد ما طلعت الشمس فمات قبل أن توجب صلاة الظهر فانه يغفر له ، وهو لم يعمل خيراً قط وقلت ثانياً : لعل أعمال الجوارح في الأعم الذاهبة ليست شريطة

للمغفران والقبول

وبهذا زال والحمد لله من الحديث كل إشكال ، وأصبح حديثا جليلا دالا على ما في عفو الله من سعة ، وعلى ما في خوفه من أجر ومثوبة . والخوف من الله هو لباب العبادة ، ومادة التقوى . فمن لا خوف له لا تقوى له

تعذيب الميت ببكاء الحى عليه

روى البخارى ومسلم وغيرهما من طرق مختلفة عن جماعة من صحابة رسول الله ، عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » وفى رواية « ببعض بكاء أهله » وفى لفظ « يعذب ببكاء الحى عليه »

قامت الدلائل القطعية الدينية التى لا تتحمل الجدل على أن المرء لا يؤخذ إلا بما قدمت يداه ، وبما جناه . والقرآن الكريم دال بجملة على ذلك . لهذا كان الحديث مشكلا جدا الاشكال . لأن ظاهره يقاوم هذه القطعيات الدينية . فافتقرت الآراء هنا ، وكثرت الأقاويل فى شرحه والعثور على معناه .

وقد أنكرته طائفة ، منهم عائشة زوج النبي . رواه عنها البخارى ومسلم . وقالت حسبكم القرآن فانه يقول (ألا ترزوا زرة وزر أخرى) وقالت طائفة : إنما يكون ذلك إذا أوصى الميت ، أهله بالبكاء عليه فانه يعذب حينئذ وإلا فلا . وكان من عادة العرب أن يوصوا بالنياح عليهم ، وهو موجود فى أشعارهم

وقالت طائفة : هذا لمن أهمل تعليم أهله أن النياحة محرمة . فانه يعذب لانه لم يعلم أهله ما يتقون ، وما يجلب سخط الله ، وهو راع لهم مسئول عن رعيته ، وهو القوام عليهم

وقالت طائفة : هذا في الكفار والمشركين لا المسلمين

وقالت طائفة : هذا وارد في انسان بعينه ، والآف واللام في الميت للعهد لا الاستغراق

وقالت طائفة بظاهره ، وعقلت أن الميت يعذب بما يبكي عليه ولم تكثر أن تخالف الدلائل القطعية . وقد قيل غير ذلك . وهذه أقوال لا تطمئن النفس إلى شيء منها ، ولا يسكن عندها الضمير

الجواب الصحيح

والجواب الصحيح الذي لا يعدل عنه أن العذاب هنا هو التألم لا العقاب ، فان الميت يسمع بكاء الباكين عليه ، ويسمع ما يقولون فيه ، كما يسمع قرع نعال الدافنين إذا انصرفوا عنه ، فيتألم لذلك ، ويحزنه بكائهم شفقة عليهم ورحمة بهم كما يتألم لو كان حياً . والتعذيب هو الإيذاء والإيلام أوسع معنى من العقاب وليس من ريب أنه يوجهه بكاء أحبائه ، ويؤلمه إذا سمع منهم ذلك ، وسماع الأموات لبكاء الباكين له نظائر في الدين . فقد صح في الحديث أن الميت يسمع قرع نعال دافنيه إذا رجعوا عنه وصح أن رسول الله عليه السلام خاطب كفار بدر توخيخاً لهم وتعذيباً وإيلاماً ، وقال لأصحابه « ما أنتم بأسمع منهم

لما أقول ولكنهم لا يجيبون » وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في حديث رواه الطبراني ، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري . قال صلى الله عليه وسلم فيه « أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفا فإذا مات استرجع فوالذي نفسي محمد بيده إن أحدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبه فيأعبد الله لا تعذبوا موتاكم » وهذا فاصل في المسألة وفي معنى هذه الأحاديث

وفيها تفسير آخر لعله جيد هو أن المراد بالميت هنا المحتضر لا الميت حقيقة ، كقوله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » رواه مسلم . وقوله في حديث رواه الدارقطني « اقرؤا على موتاكم يس » فالموتى في هذين الحديثين هم المحتضرون . وهذا استعمال جائز لغة وشرعا . وهو استعمال مشهور . ومعنى الحديث حينئذ أن المحتضرين يتألمون إذا بكى عليهم أهلهم ، ويزيدهم ألماً على ألهم . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يؤلموا موتاهم ، وأن يضاعفوا ما هم فيه رحمة وشفقة بهم .

فان قيل : هذا حسن لولا أن في الروايات ما يدفعه . وذلك أن في إحدى روايات الحديث « ان الميت يعذب في قبره ببكاء الحى عليه » قلت : الذى يغاب أن هذه اللفظة غير محفوظة ، وإنما جاءت سهواً من الرواة ، والسهو يكثر في مثل هذا . ولهذا نرى البخاري روى الحديث ولم يرو هذه اللفظة وإنما رواها مسلم في بعض ألفاظه ومسلم يتساهل كثيراً في التوابع والشواهد . ويزيدنا اطمئناناً إلى أن

هذه اللفظة سهو أن أمثالها يقع فيه السهو كثيراً . وذلك أن الراوى يحسب أن العذاب المذكور لا يكون إلا فى القبر ، فيتبادر إلى ذهنه وإلى لسانه زيادة ما حسب أنه هو المراد . وعلى هذا يخلص الحديث من شوائب الاعتراض . وحيث وجدنا للخبر الصحيح مذهباً سليماً من الشبهة وجب المصير إليه .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »
اعتصم هذا الحديث على قوم . قالوا : إن أراد حقيقة اللفظ ، وأن المؤمن إذا لدغته حية أو نحوها من جحر لم يلدغ منه مرة أخرى ، كان هذا غير صحيح . فقد يلدغ المؤمن من جحر مرات . ثم أي فرق بين المؤمن وغيره فى هذا ؟ وإن أراد مجاز اللفظ ، وأن الحديث مثل مضروب ، يراد به أن المؤمن لا يخدع مرتين ، وأنه إن خدع مرة فلن يخدع غيرها ، كان أيضاً غير صحيح . فقد نرى المؤمنين أكثر الناس انخداعاً فى هذا العصر . وهذا الغرب يتلاعب بالشرقيين المؤمنين ، لينتقل بهم من خديعة إلى خديعة أعظم ، وهم لا يتعظون . وهذا الشيطان أبداً خادعهم . فالحديث إذاً مشكل جداً

ونحن نقول : الحديث صحيح الإسناد ، صحيح المعنى . وهو من جوامع الكلام التى أوتىها رسول الله عليه السلام ، ومن العبارات التى

يعجز عن بلوغها فحول البلاء . وبيان ذلك أن المؤمن حقاً يجب أن يكون فطيناً ، ألعياً ، ذكياً ، لا يخدع ولا يغلب على أمره ، بل يحتاط لنفسه ، ولدينه ، ولعرضه ، ولوطنه ، ولكل حرمة يجب الاحتفاظ بها ، والرعاية لها . ولا يكون كأقوام نراهم اليوم بلهاء مغفلين ، ينقادون لكل خادع ويقعون في كل حيلة . يخدعون في دينهم ، وفي أعراضهم ، وفي أوطانهم وفي أموالهم وأنفسهم ، ثم لا يستيقظون ، ولا هم يتعظون ، تخدعهم الساسة على بلادهم ، ويخدعهم المبشرون على دينهم ، وتخدعهم الدنيا . وهم هم لهذه الخوادم كلها أذلة منقادون ، وفي أيديها سادرون داخرون . فليس هؤلاء من المؤمنين حقاً الذين إذا قيل « المؤمنون » فهم المعنيون . وقد جاء في الخبر أن المؤمن كيس فطن . وقد وصف القرآن المؤمنين بالعقل والعلم والمعرفة ، ووصف الكافرين بالغباوة والجهالة والبلادة في غير ما آية من كتاب الله عز وجل . وهل يكون عاقلاً من لا يبالي بالآخرة ، وهي الحياة التي لا تنقطع ، وينفق همه وهمة في الدنيا وهي الفانية الخادعة ؟ وليس بعاقل من آمن بالساعة وبالجنة والنار ، ثم لم يجعل ذلك هو الأمر الذي له يهتم ويتعب وينصب ، بل ليس بعاقل من يشك في الآخرة وثوابها وعقابها ، ثم لا يبحث إلى اليقين ، ولا يحتاط لنفسه ، ويأخذها الحيلة . ونحن نحسب من يقدم على الشر الذي يشك في وقوعه فيه أحمق . فكيف بمن آمن بالآخرة ، وجنتها ، ونارها ، ثم نسي ذلك ؟ ! أوليس ذلك أوفر الخليفة حمقاً وغباءً ؟ !

فالحديث وصف للمؤمنين بالفطانة ، والرزانة ، والتثبت ،

والاحتياط . فهو لا يريد الحجر حقيقة ، ولا يريد العدد حقيقة ، ولا يريد اللدغ حقيقة ، بل هو أعلى من ذلك هو مثل - كما رأيت - لحال المؤمن الصحيح الايمان . خاله الفطنة ، والرزانة ، والتدبر فيما يأتي وما يندر . يفكر ثم يعمل . يفكر في المخرج قبل أن يصمم على المدخل فلا يتقرب إلى الله بعبادة ، أو قربة ، حتى يعلم أن ذلك طاعة لله ، وأن الله طلبه من عباده ، فلا يبتدع ولا يخترع ، ولا يقول على الله قولاً حتى يعلم أن الله قاله ، أو أن رسوله قاله ، ولا يقطع أمراً قبل أن يعرف أنه نافع لدينه أو دنياه ، بل يعقل ذلك كله ، ثم يقدم عليه مطمئناً رشيد الخطوة . فلا يهوى في غضب الله ، أو في إيذاء نفسه وأهله وصحبه . ذلك هو المؤمن حقاً ، وذلك هو ما يعنيه حديث رسول الله . وقد كان المؤمنون الأولون كذلك ، بل فوق ذلك ، فأحرزوا الدنيا ، وجنة الأخرى ، وكانوا ملوك الدنيا ، وملائكة الأخرى ، أو ملوك الأرض ، وملائكة السماء

والذين جعلوا الحديث مشكلاً هم الذين حسبوا أن العدد مراد حقيقة ، وأن الحجر مراد حقيقة ، وأن اللدغ مراد حقيقة . والحق أن الحديث لم يعن من ذلك شيئاً ، وإنما عني ما ذكرنا ، وبه خلاص الحديث من الاشكال ، وصار قاعدة من قواعد أخلاق المؤمنين العالية . وهو صحيح سواء أ قيل : إن الحديث على الإخبار ، وإن المعنى أن ذلك هو شأن المؤمنين ، ووصفهم اللازم الذي امتازوا به ، على شرط أن نعي بالمؤمنين المؤمنين حقاً ، أم قيل : إنه على النهي ، وإن المقصد نهى المؤمنين عن

أن يكونوا بلهاء مغفلين . والقولان صحيحان شرعاً ولغةً . والحديث عليهما صحيح .

وليعلم القارئ أن العدد لا يراد حقيقة كثيرة . فقد قال في القرآن (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقال (ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وقال (أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) وقال (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) ومن ذلك على قول للنحويين « لبيك وسعديك » . وأمثال ذلك كثير ، وهو لا يراد به حقيقة العدد ، وإنما يراد التكثير ، أو مطلق العدد . والحديث من هذا النوع . فصح معناه وسنده .

تحريم الجنة على العاصي

صح عن رسول الله عليه السلام أنه قال « لا يدخل الجنة نمام » وأنه قال « لا يدخل الجنة قاطع رحم » وأنه قال « من قتل معاهداً ذمياً لم يرح رائحة الجنة » هذه الروايات في الصحاح وغيرها . وأمثالها لا يحصى عدده . وإنما ذكرنا الروايات الثلاث نموذجاً لنذكر الجواب عنها ، ليكون جواباً عن أمثالها مما لم نذكره إذا مر على القارئ إن شاء الله

هذه الروايات وما في معناها مشكلة في الظاهر . فان ظاهرها أن من عمل أحد الأعمال المذكورة حرمت عليه الجنة ، ولم يدخلها أبداً ومعنى هذا أنه يخلد في النيران ، لأن الناس فريق في الجنة وفريق في السعير . ولا جرم أن هذا خلاف قطعيات الدين ، وخلاف إجماع أئمة المسلمين . والنصوص متظافرة على أن العصيان ليس كفراً ، وأن العاصي يدخل الجنة ، وإن طال مكثه في النار ، ما لم يتلبس بكفر أو إشراك .

وقد اجاب العلماء عن هذه الأحاديث اجوبة كثيرة ، واكثرها متكلف لا تقبله النفس المفكرة . واقرب ما يقال في ذلك ما يأتي :

أولاً - يجوز أن يكون ذلك كناية عما يوجب النار ، وعما يحرم الجنة . فان إسراف المرء في النسيمة ، وهي التحريش بين الناس ليتقاتلوا ويتعادوا . وكذا قطع الأرحام ، والتضييع لها ، وقتل المعاهدين الذميين الذين أعطوا ذمة الله واطمأنوا إليها : نعم إن اسراف المرء في ذلك كله يدل على أنه لا يرجو الله وقاراً ، ولا يخاف له عقاباً ، ولا يرجو منه ثواباً ، ولا يذكر جنة ولا ناراً ، وإلا نهاه بعض ذلك عن أن يتعاطى تلك الفواحش ، وأن يشار على هذا المخازى ، بلا توبة رادعة ومن كان كذلك كانت الجنة عليه حراماً ، وكان للنار أهلاً . وليس ذلك لأنه غام ، وعقوق ، وقتال للمعاهدين فقط . بل لأن فعله ذلك شهيد بأنه قليل الاكتراث بالله وبشوابه ، وعقابه ، وفي جنته ، وناره ، وإلا لكان له من ذلك واعظ يعظه ، وزاجر يزجره . ويقارب هذا

قول الله تعالى (ويل للمطففين الذين إذا اكتبوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) ألا يظن هؤلاء الظالمون الباخسون الناس أشياءهم أنهم راجعون إلى الله فحاسبهم على القليل والكثير ؟ على القطمير والنقير ؟ على الخير والشر ؟ كلا . فانهم لو علموا ذلك لكان لهم منه واعظ يعظمهم ولما ظلموا أحداً . فإن النفوس مجبولة على أن تتقى الشر وإن قل ، وأن تحرص على الخير وإن قل . فمن لم يحرص على الجنة ، ويتقى النار ، دل على أنه غير مؤمن بهما . وفي هذا المعنى قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقور بهم وأنهم إليه راجعون) وقوله (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقوله (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) وقوله (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) وشبائه ذلك في القرآن يعز حصره . يجعل الصلاح دليلاً على صدق الإيمان وثباته ، والفجور دليلاً على قلة الإيمان وتضعضعه

فكذلك الأخبار المذكورة تعنى أن هجوم الانسان على هذه السيئات بلا تأثم يدل على أن إيمانه قليل أو مفقود فهو لا يدخل الجنة لذلك ، لا لتلك السيئات . ولهذا كثيراً ما يقول رسول الله عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا ، كقوله « من كان يؤمن

بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »

فأعمال البر دليل الايمان ، وأعمال الفجور دليل الجحود والكفران . وفي معنى ذلك قول الشاعر :

تعصى الآله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعمته إن الحب لمن يحب مطيع
فمكل من ادعى شيئاً ، ولم يأت بدليل دعواه ، كان كاذباً . ودليل
الايمان بالله حقاً ، وباليوم الآخر ، وبالجنة والنار هي الأعمال . فان من
آمن بأن عملاً من أعمال الدنيا فيه غناه فلا بد أن يجد في طلبه ، وإن لم
يفعل لم يكن مؤمناً بذلك ، إلا أن يكون به جنة . وفي أول الأنفال
(فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ،
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً) وقال (قالت الأعراب آمنا قل لم
تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) إلى قوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله
أولئك هم الصادقون) وبهذا تفسر تلك الأحاديث التي اعتصمت على
كثير من العلماء ، وتحيروا في الجمع بينها وبين أصول الدين . مثل قوله
صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق
السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو

مؤمن » وقوله عليه السلام « من رغب عن أبيه فقد كفر » وقوله « اثنان في الناس هما كفر : الطعن في الأنساب والنياحة على الميت » وقوله « من ترك الصلاة فقد كفر » وأمثالها .

ولا ريب أن من واطب على ترك الصلوات ، وأركان الاسلام ، وعلى الزنا ، والحمور ، والسرقات ، والنميمة ، وقطيعة الأرحام بلا توبة ، قليل الايمان ، بل فاقد الايمان . فان المؤمن حقاً الذي يخاف الله ويخاف مقامه ، إن وقع في شيء من ذلك لم يلبث أن يعود إلى ربه ، وإلى عقله ولم يلبث أن يمد إلى الله يد المتاب ، كما قال (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذاباً عظيماً) وقال : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) فالجنة معدة للمؤمنين الذين لا يصرون على المعصية ، بل إن قارفوا منها شيئاً لم ينشئوا أن يتوبوا لأن إيمانهم يدفعهم إلى التوبة وأما من أصر على محاربة الله ومخالفته فليس بمؤمن حقاً ، وإنما يدعى ذلك ادعاء ، ومثل هذا لا يستحق الجنة .

وتستطيع أن تتصور هذا المعنى في إنسان يدعى حبك وصادقتك في حين أنه لا يزال يخالفك ويسعى في إبطال أوامرِك وإتيان ما تكره ومجانبة ما تحب . فهل تصدق أن هذا صديق وحبيب حقيقة ؟ ! وهل يمكن أن يكون كذلك ؟ ! اللهم لا . وتقدر أن تفهم ذلك أيضاً في نفسك فانك واجدك تتفانى في خدمة من تحب ، وتستسهل الصعب في اكتساب مرضاته ، وتتق طاعتك لإغضابه ومخالفته . فان وقع منك شيء يدني من غضبه ، أو يجرح شعوره ، لم تردد في أن تتوب ، وأن تبسط إليه يد الاعتذار . فمن كان محباً لله ، حريصاً على رضاه ، لم يكن منه أن يصر على مخالفته . هذا ظاهر . وهذا أحسن محمل لهذه الأخبار ، وأقربها إلى الشرع واللغة والعقل

الرأى الثانى

أن النفي واقع على حالة من الحالات ، وعلى زمن من الأزمان ، لا على كل الحالات ، ولا على كل الأزمان . فلا يراد أنه لا يدخل الجنة أبداً ، ولا يدخلها في حالة من الحالات التى تقع تحت اللفظ ، بل يراد أنه لا يدخل الجنة في زمن معلوم ، وحالة خاصة ، كأن يراد أنه لا يدخلها ابتداء مع أول الداخلين ، أو لا يدخلها دخولا مطلقاً ، دخولا حراً من كل قيد ، يبيح له كل لذة في الجنة بلا تقييد ولا تضيق ، أو لا يدخلها دخولا يبيح له جميع لذات الجنة ودرجاتها . والجنة درجات كما النار دركات . أعاذنا الله منها . بل يدخلها على حالة من الحالات .

وهذا الرأي لا تأباه اللغة والدين ، ونظائره موجودة معروفة
في الكلام . فقد قال الله في حق موسى : (قال ربني أرني أنظر إليك
قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل) . وقال في حق اليهود (فتمنوا
الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً) ولا ريب أن موسى سوف
يرى الله في الآخرة ، وأن اليهود سوف يتمنون الموت وهم في أطباق
النار فراراً من ذلك العذاب النكر المستمر . فالنفي في الآية حالة
لا لكل حالة ، وفي زمن لا في كل زمن . وقال (فيومئذ لا يسأل
عن ذنبه إنس ولا جان) . وقال (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم
ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر
إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم) . ولا ريب أنه لا يريد أنهم
لا يكلمون ولا يسألون أبداً . فكذلك الروايات المذكورة . ومثل هذا
من الكلام أن ترى جماعة يتأهبون للحج هذا العام ، فيقولون لك : ألا
تخرج معنا ؟ فتقول : لا ، أو لا أخرج ، وأنت تعني أنك لا تخرج
العام ، لا كل عام . وكذا إذا قال إنسان يريد الذهاب إلى مكان : اذهب
معي إلى مكان كذا ، فقلت : لا أذهب ، كان مرادك أنك لا تذهب
معه في تلك الساعة لا في كل ساعة . وكذا إذا قيل لك : كل واشرب
واقعد واخرج ، فقلت : لا أفعل ، كنت تريد أنك لا تفعل في تلك
الساعة لا في كل ساعة . وهذا شيء واضح . وهو كلام فصيح جائز
في كل لغة . وكلام رسول الله يذهب به حيث تذهب العرب بكلامها
وكذلك قد تقول : فلان لا يتقى الله ، ولا يخاف الله ، إذا ما كانت

تقواه وخوفه قليلين ، وإن كان أصل ذلك موجوداً عنده . وتقول :
فلان لا يخاف أحداً ، ولا يحب أحداً ، ولا يرجو أحداً ، إذا ما نقص
حظه من ذلك . ولست تريد أنه فقد ذلك جميعاً . فان هذا لا يمكن .

وهذا التوجيه في الروايات يوافق الأخبار الصحيحة الكثيرة في
أن طوائف من المسامين يدخلون النار ويخرجون منها بعد أن يطهروا
وينقوا من سيئات تلطخوا بها . وهذان التوجيهان هما أحسن ما يقال
في الأخبار

وفيهما أقوال أخرى قالها شراح الحديث . ف قيل : إنها منسوخة
بآيات والأحاديث والاجماع . فان هذه دالة على أن الموحدين يدخلون
الجنة لا محالة ، وإن عذبوا في النار أزماناً . وقيل : إن هذه الأخبار كانت
في بدء الاسلام . وقيل : إن المراد من استحل تلك القبائح لا من فعلها
وهو يرى أنها حرام . فالذي يستحل النخعة والقطيعة ودماء الذميين
لا يدخل الجنة أبداً ، لأن من استحل ذلك كفر . وقيل : إنها من العام
الذي غني به الخاص . فهي وإن كانت ظاهرة في أن من فعل ذلك فهو
في النار مخلداً سواء الكافر والمؤمن إلا أن المراد بها الكافر ، ولا ينكر
أن في الشريعة وفي اللغة الفصيحة عمومات أريد بها خصوصيات . وقيل :
إن المراد منها التخويف وزجر الآثمين . وقيل : غير ذلك

وجميع هذه الأقاويل لا يعتد بها وبعضها من أقوال أهل الاحاد
وهو القول الأخير .

تحريم منه قال لا اله الا الله على النار

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » وعن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله عليه السلام يقول « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذبهم إذا فعلوا ذلك » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار » وعن عتيان بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فيدخل النار » وفي رواية « أو تطعمه النار » . هذه الروايات صحيحة خرجها أصحاب الصحاح وغيرهم .

وقد أسرف قوم فزعموا أن من شهد أن لا إله إلا الله فهو في الجنة ، وهو محرم على النار ، وإن تلبس بالفواحش كلها ، وإن لم يعمل خيراً قط ، واحتجوا لمقاتلتهم هذه بالروايات المذكورة وما في معناها . وهذا القول من الدين والصواب في مكان سحيق ، وهو مخالف قطعيات الدين وإجماع أئمة الاسلام قاطبة ، ومخالف الضرورة والمعقول . وقد صرح الكتاب الكريم وكذلك سنة رسول الله في غير موضع أن من ترك الصلاة أو شعيرة من شعائر الاسلام الكبرى فصيره إلى النار ،

وإلى غضب الله ولا بد . وجهر أن من عصى الله فهو ذاهب إلى النار ، وهو على خطر عظيم . قال (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) وقال (تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) أى عذاباً أليماً . وقال فى المشركين (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) وفى الآية الأخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) إذا من لم يتب من الشرك ، ويقل لا إله إلا الله ، ويقم الصلاة ، ويؤت الزكاة ، فلا يخل سبيله المؤمنون ، بل يجاهدونه على ذلك جهاداً عظيماً . ومن وجب أن يجاهده المؤمنون فليس منهم ، وليست له الجنة . وكذلك من لم يفعل ذلك فليس من المؤمنين وإن قال لا إله إلا الله ، وليس أخاهم ، لأن الآية اشترطت للأخوة القيام بهذه الشعائر . ومعلوم (إنما المؤمنون إخوة) فالذى ليس أخاهم ليس بمؤمن . وقد اعترف أهل النار أن أول ما يدخلهم النار هو ترك الأعمال . فقالوا لما قيل لهم (ما سألكم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين) وفى غير ما آية من كتاب الله أن أهل الجنة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) بل قد جعل القرآن العمل هو الطريق إلى الجنة وحده . فقال (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقال (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) وقال (هل تجزون إلا بما كنتم تعملون) إلى آيات كثيرة . وذلك يدل على أن الايمان بلا عمل لا فائدة فيه بل

لا يسمى إيماناً . كما يقول السلف : إن الإيمان قول وفعل وعقيدة .
وهذا قول أهل الحق قاطبة .

وقد عرف القرآن المؤمنين في آيات عدة (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) وقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا) وفي أول البقرة (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد أوعد من عصى فقال (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) وقال بعد أن قسم المواريث (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) بل قد ذكر ما هو أبلغ من ذلك في الإيعاد ، فقال (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وفي آية (فأولئك هم الظالمون) وفي ثالثة (فأولئك هم الفاسقون) وقال (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)

هذه براهين قاطعة على أن الشهادتين وحدهما لا يعصمان من الكفر ولا من النار ، ولا يوجبان الجنة . ولقد توعد على سائر المعاصي

بالنار والغضب والحرمان . فذكر متعاطى الربا بأشد عبارات الوعيد والتهديد ، وكذلك فعل في الزنا والقتل والسرقة والظلم والعدوان . وصح عن رسول الله في مسلم وغيره أنه قال : « من ترك الصلاة فقد كفر » وصح أنه قال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ، وفي الصحيح والمسانيد والسنن أنه قال عليه السلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وفي البخارى ومسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة غمام » ، وفيهما قال : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » ، وقال : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » ، وفي الصحيح أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » ، وصح أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقال : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ، وأنه قال : « والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » خياناته . وصح أنه قال : « دخلت النار امرأة في هرة » وقال : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » وصح أنه قال لما سأله جبريل ما الاسلام : « الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » ، وقال : « اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » . فقليل له : ولم يارسول الله ؟ قال :

« لأنهم يكفرون » . قيل : أي كفروا بالله . قال : « لا . ولكن يكفرون
الاحسان » ، وقال : « من رغب عن أبيه فقد كفر » .

كل هذه الأخبار في الصحاح وغيرها . وفي صحيح مسلم أنه قال :
« إثنان في الناس هما كفر : الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت »
وفي البخاري عن رسول الله عن الله عز وجل أنه قال : (من عادى لي
ولياً فقد آذنته بالحرب) . والأخبار الصحيحة في هذا المعنى لا تعد .

وليست الأخبار التي احتجوا بها أكثر من هذه ولا أصح
ثم لو صح لهم أن يتمسكوا بظاهر هذه الروايات لقالوا : إن من
شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فالنار محرمة عليه ولو كفر
بما عداها : ولو كفر بالملائكة والنبين وكل ما بعد الموت .
وهذا لا يقوله ملي . إذاً لا يصح التمسك بظاهر الروايات البتة . إذاً
ما معنى هذه الأحاديث المذكورة وعلى أي شيء تحمل ؟ فالجواب أن
نقول : يجب أن نفهم الأحاديث مع نظرنا للأحوال التي أحاطت بها
ومع نظرنا لحال القائل والذي قيلت له . فأننا إذا نظرنا إلى ذلك كله
فهمنا الأخبار صواباً ولم نضل فيها ، وإن لم ننظر إلى ذلك بل أردنا
فهمها من ألفاظها مجردة من كل قرينة وحال ، كنا غالطين ضالين في
فهمنا وفي تفكيرنا ولا محالة . وهذا أمر عام في كل الأقوال ، يجب على
الذين يريدون أن يفهموا قولاً وأن يحيطوا بمعناه أن يتدبروا الظروف
والحالات التي كانت مسيطرة على القائل ومن قيل له ، ليفهموا المعنى

الذي قصد إليه القائل ، ومن لم يفعل ذلك كان خطؤه أكثر من رشده ولا جرم . وهذا شيء لا نزاع فيه بين العلماء .

إذاً يجب أن نفهم حال رسول الله ، وحال الذين خاطبهم رسول الله بتلك الأحاديث لنستطيع فهمها ، ولننصم من الضلال فيها . نظرنا فوجدنا الذين كانوا في زمن رسول الله عليه السلام ، والذين كان يخاطبهم رسول الله بتلك الأخبار ، لم يكونوا يأبون منه إلا الشهادتين . إلا أن يشهدوا أن لا معبود إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فإذا ما أقر أحد منهم بذلك لم ياب الأعمال ، ولم يمتنع من القيام بالطاعات التي جاء بها ، بل أذعن لذلك جملة . فالخلاف إذاً بين رسول الله وبين الناس في التوحيد والشهادتين ، لافي الأعمال . فإذا قوله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار » يريد من قبل دعوته التي جاء بها ، وهي التوحيد والتصديق أنه رسول الله ، وذلك مستلزم للأعمال والطاعات . ولا يراد به إن يقول ذلك مع ترك الأعمال ، فإن هذا لم يكن موجوداً في المخاطبين ، ولا معهوداً في زمنهم . وحمل الأخبار على ما لا يعهد ولا يعلم لا يجوز مطلقاً . ومن حملها كذلك كان ضالاً . فقوله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » معناه من آمن بالله وبرسول الله . وذلك يستتبع القبول لما جاء به ويستتبع العمل به ، وقد جاء بالأعمال وشعائر الاسلام وأوجب ذلك على المؤمنين ، وأوعد من لم يعمل بالنار والغضب . فمن لم يعمل بما جاء به لم يكن مؤمناً صادقاً في إيمانه . ومثل ذلك أن

تزعّم أنك صديق لفلان ، وأنت حبيبه الخالص ، ثم لم تعمل مع هذا الزعم بما توجبه الصداقة ، وبما يشرعه الحب ، فانه لا يمكن حينئذ أن يصدق أحد دعواك ، ولا يمكن أن تكون صديقه وحبيبه حقيقة .
فان المحب مطيع محبوبه ولا محالة .

ومثال هذه الأحاديث أن يقوم إنسان يطلب الملك ، فيخرج كتابا للناس يقول : من أقر بأني ملك عليه ، واعترف لي بذلك ، أعليته وأرضيته دائماً ، ولم أغضب عليه أبداً ، ولم أؤذه يوماً . فهل يمكن أن يفهم أحد من قوله هذا أنه يريد : من اعترف لي بالملك نال هذا الجزاء ، وإن لم يطعني ، وإن لم يقبل قوانيني وما فرضته على الناس ، وإن آذني بالعسيان والمخاربة ؟ ! اللهم لا . فكذلك أقوال رسول الله عليه السلام .

هذا هو التوجيه الأول لهذه الأحاديث . وهو توجيه حسبك

به جودة ١

وتم توجيه آخر ، وهو أن يقال : كان أناس يؤمنون بالله ورسوله فيموتون أو يقتلون في سبيل الله قبل أن يدركهم وقت العمل ، وقبل أن يعملوا ، لان الأجل لم يهلهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة ، ويحرمون على النار ، وهم لم يعملوا . فهذه الأحاديث تريد أمثال هؤلاء . وقد حصل ذلك في زمن رسول الله ، فأمن به أقوام ، وجاهدوا معه فقتلوا في سبيل الله قبل أن يصلوا ويصوموا ، وقبل أن يقوموا بأركان الاسلام ،

فهم في الجنة . وهذه الأحاديث قيلت في حقهم . هذا هو التوجيه الثاني ، وهو دون التوجيه الأول .

و ثم توجيه ثالث ، وهو ان يقال : لا شك أن من ضمن شهادة ان محمداً رسول الله ، ومن جملة الايمان به المعبر عنه بالشهادة أنه رسول الله ، الايمان بكل ما جاء به وطاعته في الذي أمر به ، وفي الذي نهى عنه . فلا يتم إيمان إنسان به حتى يؤمن بما جاء به . ومن لم يكن كذلك لم يكن مؤمناً ، ولا شاهداً أنه رسول الله . فإن معنى الايمان به الايمان بالذي جاء به وقاله وفعله ، وأنه من عند الله ، لا يجوز مخالفته ولا عصيانه هذا هو الايمان بأنه رسول الله . كما ان معنى الايمان بأن فلاناً من الناس طيب لا يقربه الخطأ في علاجه ان ندع له إذا أمر ونهى وعالج ، وأن تقع تحت تصرفه . وأما من رفض قول الطيب وهو عليل ، كان رفضه دليلاً على انه غير مؤمن له بالطب وصدق العلاج . هذا هو الواقع فيمن كان متوازن الشعور والتفكير . ومن قال : إن سيبويه نحوي لا يسامى ، ولا يتجاوز الصواب نحوه ، ثم راح يخالفه وينقض عليه آراءه في النحو ، لم يكن مؤمناً بما قال ، ولا صادقاً فيه

فالايمان بالرسول ، الذي يكفل الجنة ، ويحرم على النار ، يشمل الاذعان له فيما جاء به ، وطاعته فيما أمر ونهى ، وإلا لم يكن إيماناً بأنه رسول الله . كما أن معنى الايمان بأن فلاناً من الناس رسول الملك الذي لا يكذب ، طاعته فيما ادعاه ، وفيما طالب به ، وإلا كان من أرسل اليهم معرضين لعقاب الملك ، وخارجين عليه ، فالإيمان بالرسول ، أنه

رسول الله ، يشمل الايمان بكل ما جاء به ولا ريب .
ولهذا ذكرت الأحاديث الايمان به ، ولم تذكر الايمان بسائر
الأنبياء والملائكة والكتب وغير ذلك ، لأن الايمان به يشمل ذلك
كله . ولو لم يكن كما ذكرنا لكان الايمان بمحمد عليه السلام منجياً
من النار ، وإن لم يلزمه الايمان ببقية الرسل والكتب والملائكة واليوم
الآخر . فهذه الروايات لا تدل البتة على أن من ترك الأعمال في الجنة .
كما أنها لا تدل على أن من كفر بعيسى ، أو نوح ، أو باليوم الآخر ،
أو بالجنة ، أو بالنار ، وآمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فهو في الجنة
وأخيراً لينظر هؤلاء المرجئة في قوله تعالى (بلى من كسب سيئة
وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وفي قوله
(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا
وسيصالون سعيراً)

سجود الشمس تحت العرش

عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حين غربت
الشمس « أتدرى أين تذهب هذه ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال
« فأنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك
أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها ارجعي
من حيث جئت فتطلع من مغربها . وذلك قوله تعالى (والشمس تجري
لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) » رواه البخاري ومسلم . وفي لفظ

لها » فتستأذن في السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث جئت »

وقد ظنت طائفة أن هذا الحديث يدل على أن الشمس تغيب عن الأرض في وقت وتذهب لتسجد تحت العرش ، فكذبوا الحديث ، وقد حوا في روايته ورواته ، وهم عدول . قالوا : اننا نعلم بالضرورة والمشاهدة والحس أن الشمس لا تفارق الأرض لحظة ، وإنما تغيب عن قسم منها وتطلع على قسم آخر حتى تقطع الأرض كلها كذلك . قالوا : والحديث الذى يخالف المشاهدة والحس لا يصدق

وقالت طائفة : إن الحديث صحيح ، وإن الشمس تذهب كل يوم وتسجد تحت العرش ، وتغيب عن الأرض . ولم يعابوا بأن يعاندوا الضرورة والمشاهدة .

والطائفتان غلطتان غلطاً مبيناً . يتبين لك ذلك بتفسير الحديث كلمة كلمة . فنقول : الذى فى هذا الحديث ما يأتى :

أولاً — إن الشمس تغرب

ثانياً — إنها تذهب وتجري .

ثالثاً — إنها تسجد تحت العرش

رابعاً — إنها تستأذن فيؤذن لها

خامساً — إنها تجري حتى تستقر تحت العرش ، وإن العرش

مستقرها

سادساً — إنها تطلع أخيراً من مغربها

هذا جملة ما في هذا الحديث . فلننظر أفيه ما يخالف المشاهدة

والحس

أما الأول ، وهو أنها تغرب ، فلا إشكال فيه . لأن الغروب هو الاختفاء . والشمس تختفي . ولا يضرنا أن يكون الغروب أى الاختفاء ناشئاً من سير الأرض ، أو من سيرها هي . فالعرب تقول : غرب الجبل وغاب . إذا ما أبعدوا عنه حتى اختفى عنهم . والجبل ثابت مكانه لا يزول . والذين يقولون : إن الشمس ثابتة يقولون لها غربت وطلعت . وغروبها مذكور في القرآن

وأما الثانى ، وهو أنها تذهب وتجري ، فلا إشكال فيه أيضاً . لأن علماء الفلك اليوم يقولون : إنها تدور حول نفسها ، ويقولون : إن لها دورة أخرى حول نجم آخر . والدوران لا يكون إلا من جري بالضرورة ، لأن الجري هو المشي . ثم إن الجري له استعمال آخر مجازي ، كما تقول الآن : إن الحكومة السعودية العربية تجري مجازي إلى الأخذ بأطراف الكمال والمدنية الفاضلة بجد ونشاط ، كما يقال : جرى قلم القضاء بما يكون ، وأمثال ذلك . ولا يراد به الحركة والانتقال حقيقة

وأما الثالث ، وهو أنها تسجد تحت العرش ، فنقول : قد أخبر القرآن أن كل شئ في السموات وفي الأرض يسجد لله ، كما قال (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) وقال (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس

والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير
حق عليه العذاب) وقال (النجم والشجر يسجدان) والآيات في هذا
كثيرة . كما قد أخبر أن كل شيء قد أسلم له ، وكل شيء يسبحه (وإن
من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (سبح لله ما في
السموات وما في الأرض) ولا يراد بذلك سجود كسجود العقلاء ،
ولا تسبيح كتسبيح العقلاء . وإنما يعني به أحد ما يأتي :

إما أن يكون ذلك عبارة عن الانقياد والخشوع . والنامس يسمون
هذا سجوداً . كما قال الشاعر :

أبدو في سجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا
وكما قال الآخر :

فكيف بمن لو أننى لحث واقفاً هوى ساجداً من خشيتي وقضى النجبا
وكما قال عمرو بن كاشوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تنخر له الجبار ساجدينا
والمراد بهذا السجود الخشوع والانقياد . ويقوي هذا التفسير
قوله في الآية (طوعاً وكرهاً) وقوله (وظلالهم بالندو والآصال)
وإما أن يكون المراد بالسجود الدلالة على الله . يعني أن هذه
المخلوقات تدل على الله ، وعلى أنه يستحق أن يسجد له كل شيء ، وأن
يعبده كل شيء . وهذا مجاز مشهور في اللغة . والتفسير الأول في السجود
هو التفسير .

وأما تقييد السجود بأنه يكون تحت العرش فهو مبالغة في الانقياد

وعبارة عن تمام ذلك . كما يقال : فلان يسجد تحت قدمي فلان ، ويسجد تحت سريره ، وتحت عرش الملك . والمعنى في ذلك المبالغة ، ولا تراد الحقيقة . فقوله إنها تسجد تحت العرش يعنى انها خاضعة له أكمل الخضوع وأتمه

وأما الأمر الرابع ، وهو أنها تستأذن فيؤذن لها . فنقول : غاية ذلك ان يكون مجازاً يراد به طاعتها خالقها ، وطلوعها وغروبها بمشيئته وإرادته ، حتى كأنه يأمرها وينهاها فتعقل عنه ، وحتى كأنها تستأذنه في رواحها وغدوها . وهذا كله يعبر عن الخضوع . فان الخاضع يستأذن الخضوع له عادة ، ويستأمره فيما يأتي وما يذر ، ويسير حسب إذنه . فأطلق الاستئذان وأراد به ما يتبعه عادة ، وهو ما ذكرنا . وهذا النوع من التوسع شائع في الكلام . فهم يقولون : هذه الرسوم البالية تخبرنا أن كل شيء بال ، وأن كل جديد فالى البلى والزوال . ويقولون : هذه السيوف تشكو طول مكثها في الأغمار . ويقول القائل منهم : شكاً إلى جملي وناقى طول السرى ، وشكت هذه الدابة الى الجوع والتعب . ويقولون : هذا البيت يخبرنا أن بانيه حاذق بناء ، وهذه الصورة تقول إن من رسمى لرسم ماهر . ويقولون : قالت عينا الحبيب سمعاً وطاعة . وأمثال ذلك لا يحصى . وطائفة من المفسرين يقولون : إن كل ما نسب إلى الجاد ، والسماء ، والأرض من المقال ، والخطاب بينها وبين الله محمول على ذلك . وذلك كقوله في السماء والأرض (قالتا أتينا طائعين) ونظائرها المعروفة في القرآن . ومثله استئذان الشمس وسجودها

وأما الخامس ، وهو أنها تجرى حتى تستقر تحت العرش ، فيقال :
أما الجري فقد ذكرنا معناه . وأما أنه يكون تحت العرش ، فيقال : هذا
كناية عن رجوعها إلى الله . إذ ليس وراء الله لمخلوق مرجع ولا مذهب
فهو كقوله تعالى (ألا إلى الله تصير الأمور) ويقول الناس « خطاب
العرش » وهم يريدون خطاب من على العرش . أو يكون المراد بذلك
أنها تستقر تحت العرش أخيراً عند ما يأذن الله للساعة بأن تقوم
وأما الأمر السادس ، وهو أنها تطلع من مغربها ، فيقال :
هذا عند ما يأذن الله تعالى للعالم بالخراب والفناء ، ليخلق عالماً من
أنقاضه أصلح للسكنى وأكثر إراحة لعباده . وهذا من علامات
الساعة . والأخبار بأن الشمس تطلع من مغربها في الصحاح
هذا جملة ما في الحديث مما قد يعد مشكلاً قد بان لك أيها القارئ
أنه لا يقضى برد الحديث الصحيح . فان قلت : إن كل ما ذكرت جميل
لولا أن قوله « تذهب حتى تسجد تحت العرش » يدل على أن السجود
غير الذهاب ، وغير التصريف والانتقاد . لأنه قد جعل السجود نهاية
ذلك وغايته . فلا بد أن يكون السجود المذكور غير ما عبرت
عنه بالخضوع

قلت : عن هذا جوابان :

أحدهما — أن المراد بالسجود تحت العرش هو وقوعها تحته حقيقة
في آخر الدنيا عند انقضاء مهمتها ، وسكون حركتها . والمعنى أن
الشمس تبقى في شأنها إلى أن يأذن الله بفساد العالم ، فتقع تحت العرش

ساجدة . وكل شيء الى انقضاء إلا وجه ربنا تعالى
وثانيهما - ان هذا مثل أن تقول : سار فلان حتى سار سيراً
متعباً . وسار حتى أجد في السير . وسار حتى انقطع ظهره من
الاعياء . وأمثال هذه الكلمات . وليس جنس الذي قبل (حتى) غير
الذي بعدها فيه . على أن (حتى) قد تكون للمطف المطلق كالفاء
والواو . وهذا قول مشهور لطائفة من علماء النحو . وعليه يكون
سياق الحديث « تذهب فتسجد تحت العرش » الى آخره . وعلى هذا
مخلص الحديث من هذه الشبهة

وعلى كل حال فالحديث عبارة عن أن الشمس مسخرة لله ، خاضعة
لأمره الكوني ، سائرة على حسب ما أراد وقدر ، حتى كأنها عاقلة ،
تسمع خطابه . والرواية الأخيرة وهي قوله « حتى كأنها قيل لها
ارجعي من حيث جئت » تشهد لهذا وتقوى أن يكون الحديث
تمثيلاً لحالة الشمس . فالحديث صحيح المعنى مع تدبره ومع اعطائه
ما يليق به من التفهم والتعقل والتريث في اصدار الاقوال . فان الزلل
كثيراً ما يقارن العجل

نسخ النسخة في القرآن

وردت أحاديث في الصحاح وغيرها تدل على أن آيات من القرآن
الكريم قد نسخت تلاوتها مع إبقاء أحكامها . ففي البخارى عن
عمر بن الخطاب أن آية الرجم قد نزلت في كتاب الله . وفي صحيح مسلم